الغايات - ٦

ولنا أن نقول : إن كل شيء فى الدنيا عقبة لآخر وغاية له . وله عقبة من كل شيء وغاية فيه على قاعدة أن النافع قد يضر والضار قد ينفع . فقد اقتضى النظام الكونى أن يكون الانسان والحيوان والجماد على اتصال لا يستقيم كل بدونه لموضع حاجته من الآخر وافتقاره إليه حتى لا ينازع فى صفة القيام بالنفس من ليس كمثله شيء وفى ذلك عبرة . وهنا يجمل أن تتدبر نعمة تسخير الله ما حول الانسان للانسان من كائنات ملوع إرادته ورهن إشارته لا تبدى ولا تعيد ولا تعترض على ما يريد . فان التبس عليك اجتماع تسخير الكائنات وكونها لك عقبات، فاعلم أن عقبة الكائن بك ومنك إذا حببت بالفضل وميزت بالعقل وقدمت بالسداد على إلهام الحيوان وطبيعة الجماد . ألم تر إلى البحر كيف سخر لك لتأكل منه لحماً طريا ، وتستخرج منه حلية وحلياً ثم لا تنفذ إلى قيعانه ولا تنتفع بياقوته ومرجانه، ولا تطمع فى صيده أو تأمن من كيده إلا إذا صنعت الفلك مستمدا عقلا منحك لتتفكر به كل فى ما سنح لك وتنال من كل شيء أملك .

وللغايات مفسدات ما تفارقها إلا أن يتغلب طارقها ، منها ما هو نفسى ومنها ما هو حسى . كم تسللت هذه المفسدات على الغاية فتركت عامرها خرابا وماءها سرابا ، وصورت من العرى ثيابا ، ومن الخصب يبابا . رسولها إبليس وبضاعتها تلبيس ما أشبهها بالسوس ينخر فى العظام وبالسيف يعيث بالأقلام . مكنت الهادم من أن يهدم وأباحت للفاجر أن يقدم . أهلها هم المفسدون عشاق الخلاف ، وجزاؤهم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف حيث يحاربون الله ورسوله ، ويقطعون على المجتمع مأموله . فأن أهل البيت لينعمون وعلى البر يتعاونون ولا يمنعون الماعون . يقولون ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لمالمناحقه. يتضافرون على الاصلاح ويتوافرون على الفلاح يسودهم الوئام ويحدوهم السلام يعصفون بكل عدو صياح كما تعصف بالأرواح هوج الرياح يحملون المصيب كل يتصيب لا يخطى، بل يصيب فاذا غضب عليهم شيخ المسرفين الذين يفسدون فى الأرض ولا يصلحون ، دبر وقيعتهم ، وأحكم خديعتهم ، ليشفى كامن البغضاء وليسمعهم قول أبى العلاء :

فهلا بنى الورهاء ما كان فيكمو ... رشيد ولا أنتم بأهل معالى

لم يشتبك مع الأتقياء ، ولم يعمد إلى الأولياء ، وإنما أفرخ فى صدر الموتور وغرر به ،

وأنهم أن المكر يدانى من مأربه ، وأنه إياس وعلى نبوغه تام القياس ، وأن ليس لأمام الجماعة دراية حتى تحقق عليه رايته ، ولا هو فى حسنه حتى يستقل بفضله . وما أسرع ما فوت بواعث الشر وانتشرت فى البحر والبر بتشجيع أحلاف الفتنة أعداء الفطنة من عباد البطون والراضين بالدون والنازعين إلى الحطام والعاكفين على الحرام . فاذا البيت المطمئن يتقاذف كرته رجال من الجن ، كأن كالقطب تدور عليه الرحى ، وتخر الناس له إلى الهجى ، فاستعار مداره ، واضطرب ثقاله وانقطع حبل الطاعة وذهبت معالم الجماعة ، فتزعزعت أركانهم ولم تأمنهم يوم سبتهم حيتانهم ، وبعد الطلح المنضود والظل الممدود شربوا من الحميم شرب الهيم وفقدوا الهدوء فى معرسهم ؛ وأحسوا بالضيق فى متنفسهم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » .

ويا هول ما تلقى الجماعات والأمم من أصحاب الأغراض وذوى الأمراض مفسدى الغايات ومعاكسى النهضات :

١ — متقلبى الأعباء ومظاهرى الأعداء . فسكينة كل أمة أصيبت من بنيها فى الشباب فلا يخلصون إذا كانوا عمالا ولا يتعلمون إذا كانوا جهالا ، تشغلهم المادة عن السمت والجادة .

٢ — وبقيمة كل أمة ينزع أهلها عن المكارم ، يتركون الفتنة تتعثر فى الخطام ، وتستيقظ من المنام لا يتقى الله كبارها فى السر والعلن ولا يتجنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

٣ — ومضطربة الحال كل أمة لا حظ فيها للأكياس والراسخين فى العلم من الناس يكثر فيها حلفاء الشيطان . والغاشون مهابط العدوان ومن لا يدرون ما الكتاب ولا الايمان .

٤ — ومريضة كل أمة تروج فيها الأساطير وتموج عرصاتها بالمواخير . يمارى عالمها فى الحيرة ، ويذهل فى السكرة يحتقر جنسه ويضيء للناس ويحرق نفسه

٥ — وفى حالة النزع كل أمة تواكل أهلها ، وانتشر حبلها وأضحك فصلها وأغمد نصلها ، وأعوزها من يبذل ماله لاعزازها ونفسه لانقاذها

فقل لبنان يقول وكن مملكة ... على الكتائب يبنى الملك لا الكتب

وفى حفر مسقفة عابهن الجنادل والكثيب كل أمة تأخذ من دينها ما يأخذ المايل من المكحلة ، والآنف من الزهرة الذابلة والهوام من الصخرة والماء من البشر فالكذب وسيلة النجاح فيها ، والصدق سبب العداوة بين أهليها . للباطل فيها جولان وللزور أرسان . تتفق جوانح مصلحيها على الرغبات ، وإشباع الشهوات والتظاهر بالدولة والتفاخر بالصولة يسألون ولا يسألون وينتقدون ولا ينتقدون ، وضمت الفضيلة فى وجهها منهم نقابا أسود وأقامت الرذيلة بينهم المقام السرمد ، الهشام فيها مسالمون ، والكرام مخاصمون ، والقلوب متحاربة ، والنفوس متضاربة

والعفة فى حرة الخجل ، والمروءة فى غاية الوجل . يتوارث أمرها أعلام الطمع ، أنصار البدع استعبدت الدنيا طبيبها وشغل الزهو أريبها واحتقر السفهاء أديبها ، وأخذت من الظلم نصيبها فهى إلى القمة فى الكرب والغمة ، لا تنشرح النفس ، ولا تصل إليها الشمس

إى وربى إنه لحق ! أعتقد أن الله لا ينقذ هذا البلد من كبوس البؤس إلا أن تستقيم البيئة وتصفو الخليقة وتقوم الأمور أمام عين الرائى والدانى والنائى على غير الخيال الموهوم ، والعامل المعدوم ، فلا تغمض الحقيقة عينها ولا يجهل الباحث مكانها ، ولا يكون القوام على الأعمال فريق فاسد وفريق طامع ، وفريق مشغول بأحراز الآلاف ، وفريق غير هياب ، ولا يكون المعلم القائم على تربية النشء همه أن يمر الشهر بالخير أو القهر ، يروقه تجميل هيئته عن تحسين طويته ، تشتكى منه الأخلاق التى يهجرها ولا يذكرها . يتمثل بأنه كما تعلم يعلم ، وما سمع يكلم ، ناسيا أنه حجر الزاوية أو حاد الزاوية أو أولاج بن خراج و النبراس الوهاج أقسم بالشفق ، والليل وما وسق والقمر إذا اتسق ان المعلم فى يده أن ترجع الأمة القهقرى وأن تهبط إلى الأسفل من الثرى ، فهو ملك رحيم أو شيطان رجيم وهو خداع ضلول وسيف مسلول ، إنه يفسد غاية الأمة منه حين يعلم أن من أبنائه الطلاب من سوف تبتسم له الليالى وتصاغ له اللآلى ، فلا يوصيه وصاة لقمان ولا يعلمه القسطاس والميزان ، ولا يأخذ عليه العهد بأن يكون رئيساً يراقب الله فيما كان هيناً أو نفيساً ، لا يحترم عاملا لجمال بزته ولا يتهيبه من عامل اعتصامه بعزته . ولا يقرب من يتظاهر بطاعته أو يتهدده ببطش قبيلته على الرغم من جريرته ولا من يحمل له متاعه ويمسح بيده ذراعه أو من يملأ بالمدح أسماعه ويوجه إليه أسماعه إلا إذا كحل عين العمل ، بأعدله وعول فى ظلامه على فرقده ، وحافظ على الواجب محافظة الكرة على العين والمفهوم على الأصفرين . ولا يبعد من لا يلجأ إلى حيلته ولا يحزن فى سريرته ومن لا يهتز فرقا إذا شاهده ولا يقبل لستر عاره يده ومن يعلو بالحق صوته ويجلى فيه شوطه . متى أحسن فى مهمته واستنزف ماقى قريحته . ولا يضيع جزاؤه بين الله والناس هذا المعلم الذى يفهم أهل واديه والمجتمعين فى ناديه أن الجزاء على الأعمال عين الصواب وأنه وسيلة لا يقتحمها راع إلا أصاب . فكل عمل لا مكافأة عليه لا إجادة فيه ولن يصبح فى متناول اليد من يوفيه إذ الثور لا يداوى بالعور كما لا تطفأ النار بالشرر . والضرب على يد الناقم المظلوم والمستضعف المهضوم جدية مبتذلة ، وطريقة غير منتخلة ، ليس وراءها غير التصنع فى التأدية والمبالغة فى التعمية والقناعة بهذا الضرب خرق ، وقبول التصنع فى التأدية حمق

وكيف أروم منك جميل فعل ٭ إذا أيقنت أنى غير جاز
وليس على الحقائق كل قول ٭ ولكن فيه أصناف المجاز

ولو خوف طلابه حكم التاريخ وهو إما أفحم وإما غرم ، وأفحمهم بأنه مرآة ترى فيها الآحاد والآباد والذين لم يخلق مثلهم فى البلاد . يخرج من القبور من بهر جده وسما مجده وكم نسب مقرف الآباء ورفعه من الأرض إلى السماء ، يحمد القوم غدوه ورواحه كلما قرأوا صحفه وألواحه : وكم سام الهون وأوجب اللعن على من أعمى الله بصائرهم وذم الدهر أوائلهم وأواخرهم لما رأيت من أبناء هذا المعلم من لا ينصف نفسه إذا ولى من أمر الناس ضئيلا أو جليلا ومن رتع الفساد فى مرتع خصيب ووقف عصيب تحت سمعه وبصره ولما سمعت وقرأت أن أوطانا تنعى عميدها حيا وتحشره مع قوم حول جهنم جثيا يندبون فظائع عصره وينشدون كلما مروا بقصره

يا قصر جمع فيك الشؤم واللوم ٭ متى يعش فى أركانك البوم

ولما شاهدت الظروف العمياء والقيافى القيلاء والصدف العرجاء والحظ الذى عطف ومال وانعطف ، تبعد المحسن مع إحسانه وتقرب المسيء على بهتانه وتخفى عمل الأبرار وتظهر الفجار بمظهر الأخيار . ولجاء عمر فطاف بالليل فرارا من الويل لا من مال كل الميل فلم يقف للعاثرين على أثر ولا جاءه من الأنباء ما فيه مزدجر .

عبر الفتاح السير

تحيتى بعد عام

يا سطوراً على البياض تباها ٭ غير مغزى بها وحسن تناها
مر عام عليك فيه رويدا ٭ وارتوينا عذوبة لن تضاها
انت معنى الحياة فيك جهاد ٭ أنت بعث العقول بعد فناها
أمتعينا صحيفة العلم نشرا ٭ كم أعار الرياض تفح شذاها
لو قدرت كحبيت أعلى نضار ٭ وكتبت من العيون بماها

عبر الباقى أبو النجاه
مدرس بمدرسة السالمية الابتدائية